Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وابحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

الحب الإلهي في شعر الصوفية، دلالاته وغاياته

Divine Love in Sufism's Poetry, Its Connotations and Objectives

ريضا بن مقلة redha benmokla

دكتور، جامعة البليدة 2، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الاجتماعية، مخبر الخطاب الصوفي (جامعة الجزائر 2)

Doctor.University of Lounici Ali Blida 2 Algeria.Faculty: Of Humanities and Social Sciences, Department of Social Sciences, Laboratory of Sufi Discourse (University of Algiers 2)

r.benmokla@univ-bouira.dz

الاسم الكامل: ريضا بن مقلة redha benmokla: الايمايل: r.benmokla@univ-bouira.dz

تاريخ الاستلام: 2022-11-02 تاريخ القبول : 2023-03-24

الملخص باللغة العربية:

يشكل الشعر الصوفي جزءًا متميزًا من شعر الرمز الديني المكتوب. ويمكن فهمه من خلال ثنائية الرؤية واللغة. فهو شعر يعبر عن رؤية داخلية تنبثق عن فهم لبعض الايات القرآنية، وبناءً على هذا الفهم، جاءت قصائدهم محملة بالوجد والحنين إلى المزيد من القرب من الذات الإلهية وشخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. كما أن نصوصهم الشعرية تُظهر الأطوار التي مرت بها رؤيتهم الصوفية. فمن مجرد حب للذات الإلهية تغلبُ عليه العفوية والبساطة، إلى رغبة في الحلول والاتحاد بالذات الإلهية وانتهاء بمفارقة الجمع بين الاتحاد والانفصام أو (الفناء والبقاء). لذا أحاول في هذه الرقة تتبع البعض من المفاهيم التي يتبعها المتصوفة والتي جادت بها قرائحهم، لتعبر عما يخالج وجدانهم، وهذا باستعراض بعض ابياتهم وقصائدهم.

الكلمات الدالة: الصوفية، الحب الإلهي، الشعر.

Abstract :

Sufi poetry forms a distinct part of written religious symbol poetry. And it can be understood through bilateral vision and language. It is poetry that expresses an inner vision that emanates from an understanding of some Qur'anic verses, and based on this understanding, their poems came loaded with passion and nostalgia for more closeness to the Divine Essence and the person of the Noble Messenger, may God's prayers and peace be upon him. Their poetic texts also show the phases of their mystical vision. From mere love for the Divine Self that is overcome by spontaneity and simplicity, to a desire for solutions and union with the Divine Self, and ending with the paradox of combining union and schizophrenia or (annihilation and survival). So, in this tenderness, I try to trace some of the concepts followed by the Sufis and which their hearts were serious about, to express what engulfs their conscience, and this is by reviewing some of their verses and poems.

Keywords: Sufism, divine love, poetry.

مقدمة:

من الصوفية من اتخذ ناحية الشوق إلى الله تعالى. فقد أدخل أبو يزيد البسطامي -فارسي الأصل- على التصوف فكرة الفناء في الله. وقال معروف الكرخي وهو من أصل فارسي: إن محبة الله شيء لا يكتسب بالتعلم وإنما هي هبة من الله وفضل.

والرحلة في بحار الحب الإلهي تتغنى بالعديد من الأنغام والألحان التي أبدعها الشعراء الذين تغنوا بالحب الإلهي بعد أن سموا بإدراكهم وتذوقهم للجمال والحب إلى ما فوق رغبات الحي ودواعي المتعة[1].

وإذا تتبعنا تاريخ المديح النبوي . وإن لم يعرف بهذا المصطلح في هذه الفترة . نجده بدأ في حياة النبي صلى الله عليه وسلم حينما مدحه الشعراء، ومجّدوا دعوته وأخلاقه، ويأتي في مقدمة هؤلاء الشعراء شاعره حسان بن ثابت، وبعض الشعراء الآخرين الذين ذكرهم التاريخ بقصيدة واحدة مثل الأعشى وكعب بن زهير. وعندما انتقل الرسول [3] إلى الرفيق الأعلى رثاه الشعراء وبكوه، ولكنهم لم يخرجوا عن الخط العام للمدح والرثاء في الشعر العربي؛ لأنه صلى الله عليه وسلم مدح في حياته ورثي بعد وفاته مباشرة.

المحور الأول: نبذة تاريخية:

عدت المدائح النبوية غرضًا شعريًا قائمًا بذاته، لأن هناك من الشعراء من وقفوا أنفسهم عليها ولما يتجاوزوها إلى أغراض الشعر الأخرى. وكان من أشهر أولئك النفر من الشعراء في المشرق أبو زكريا الصرصري (ت 656هـ)، الذي يقول في الرسول صلى الله عليه وسلم :

يا خاتم الرسْل الكرام وفاتح الـ خيرات يا متواضعًا شَمَّاخا

يا خير من شدَّ الرِّحال لقصده حادي المطيِّ وفي هواه أناخا

وكان البوصيري محمد بن سعيد إمام هذا الفن بلا منازع. عاش أعوامه الثمانية والثمانين في القرن السابع الهجري بين عامي (608- 696هـ) وعانى مما عاناه بقية المسلمين من ظلم الحكام وقلة الموارد إلى جانب كثرة الأولاد الذين أثقلوا كاهله. وقد نظم البوصيري عددًا من القصائد النبوية في مناسبات مختلفة[2]، أشهر تلك القصائد قصيدة البردة التي مطلعها :

أمن تذّكر جيران بذي سلم مزجْت دمعًا جرى من مقلة بدم

أولا: الحب الإلهي عند الصوفية:

المحبة عند بعض الصوفية هي الميل الدائم بالقلب الهائم. وتعتبر عند آخرين إيثار المحبوب على جميع المصحوب. وعند آخرين هي محو المحب بصفاته وإثبات المحبوب بذاته. والفكرة الرئيسة المشتركة والمحور الأساس والغرض الأسمى من الحب الإلهي عندهم هو فناء الإنسان عن نفسه وإنكاره لذاته وبقاؤه في ربه.

فإذا حاولنا أن نتأمل حقيقة هذا الحب الإلهي ومعناه، وجدناه قد تمثل في صورته الأولى من خلال التعبير القرآني المحكم ومأثور كلام الرسول صلى الله عليه وسلم.

جاء هذا المعنى في القران الكريم في قوله تعالى: "**فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه**" [المائدة:54]، وقوله تعالى: "**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفوررحيم**" [آل عمران:31]، وقوله تعالى: "**والذين آمنوا اشد حبا لله**" [البقرة: 165]. ويروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم: "**اللهم إني أسالك حبك وحب من يحبك والحب الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي ومن الماء البارد**"[3].

والمحب الإلهي لا بد له أن يقدم بين يدي حبه طائفة من الرياضات والمجاهدات، وقد عدد أبو طالب المكي المقامات ورتبها على أنها: التوبة . الصبر . الشكر . الرجاء . الخوف . الزهد . التوكل . الرضا . المحبة. وللصوفية من المسلمين، في مكابدة الحب الإلهي ومشاهدة الجمال الحقيقي، أذواق تعرض لهم، ومواجيد تختلف عليهم، وفيما بين هذه وتلك أحوال تملك عليهم نفوسهم وقلوبهم وعقولهم وأرواحهم. يقول الحسن البصري: يحق لمن يعلم أن الموت مورده، وأن الساعة موعده، وأن القيام بين يدي الله مشهده أن يطول حزنه.

ترى الصوفية أن العقل ليس طريق المعرفة إلى الأسرار الإلهية، فطريقها هو العشق الإلهي. والمعرفة، كالمحبة، منحة ربانية وطريقها الإشراق والكشف وليس العقل. أكد الصوفيون على فكرة **الإنسان الكامل** الحاوي للأسرار الإلهية الكلية والجزئية. وغاية الصوفي هي الوصول إلى هذه الدرجة. لذلك، فالصوفي يسعى لما يسميه الهجرة الدائمة إلى الله تعالى ابتداء من مرحلة المعرفة الفلسفية المجردة إلى التجربة الذوقية الكشفية إلى مرحلة الفناء.

ولهم حال يسمونه **البقاء بعد الفناء**، أي أن الصوفي بعد أن يتجرد من صفاته الخاصة ويفنى في الصفات الإلهية يبقى بهذه الصفات ويخلد فيها. والصوفية تعتمد الرؤيا طريقة من طرق الإدراك والعمل. وهي فلسفة تقوم على الفيض والإشراق وترى من أصولها الفعل والإبداع.

ثانيا: الحب الإلهي في شعر الصوفية :

الحب الصوفي يتخذ فيه الشاعر من الذات الإلهية موضوعا يدور حوله، وفيه يصف الحب ولذته، وما يجده من لوعة وأسى أو قرب ووصال. وكذلك ما يمر به تصوفه من

مقامات وأحوال، ومجاهدة مستمرة للنفس، وما يتعرض له من فيض رباني، والهام قلبي، وسمو روحي.

وفي شعر الصوفيين يتجسد هذا الحب الصوفي الإلهي الغامر الذي نراه ينقسم شقين: شق يتعلق بحب الله تعالى للعبد، وآخر يتعلق بحب العبد لله، وكلاهما أفاض فيه الشعراء الصوفيون.

أصبحت مسألة الحب الإلهي في الحقيقة موضوعًا رئيسيًّا للشعر عند الصوفية في أواخر القرن الثاني الهجري على يد رابعة العدوية (ت185ه) التي أحبت الله لذاته، لا خوفًا من ناره، ولا طمعًا في جنته، فهي: "أول من أدخلت هذا المعنى في التصوف الإسلامي بالمعنى الحقيقي الكامل للحب، لا مجرد التعبير بالألفاظ عنه تعبيرًا ظاهريًّا"[4]، فقد تغنى الصوفية بعدها به، واعتبروه مقامًا من مقامات السلوك ، أو حالاً من أحواله[5].

تقول رابعة:

احبك حبين حب الهوى وحبا لان كاهل لذاك

فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواك

وأما الذب أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراك

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاك

المحور الثاني: الحب والكراهيّة (أسباب اتجاه الصوفية لشعر الحب):

تحفل اللغة العربية كغيرها من اللغات بالمفاهيم المتناقضة مثل الخير والشر، والعدل والظلم ، والحب والكراهيّة، هل يمكن أن يكون هناك حبّ دون تكون هناك كراهيّة؟ يدلّنا الواقع المعاش للإنسان أنّهما وجهان لموضوع واحد، بل هما قضيّة واحدة، إذ لا يمكن معرفة واحد منها دون النّظر للآخر، فمن يحب لابد أنّه كان يكره حتى وصل إلى مرحلة الحب، وكذلك من يكره، فإنّه يكره لأنّه لا يحب، والحد الفاصل بين النقيضين هو أن من يحب يكون دائماً في وضع أفضل ممن يكره وذلك من الناحية النفسية، فالحب هو تعبير عن نوع من الرضي تجاه قضيّة معيّنة. ويعكس الحب حالة من التملّك ضد حالة من الرّفض يمثّلها من يكره، ولكن لو طرحنا على من يحب سؤالا: هل تكره ؟ لكان جوابه نعم هو يكره، ولكن ماذا يكره؟ لقد كره الصّوفية الفوضى السياسيّة التي سادت المجتمع الإسلامي، وكرهوا الانهيار الأخلاقي الذي كان السّمة السائدة بين النّاس، ولاحظوا إقبال النّاس على الدنيا وأمعنوا بالتمسّك بالحياة، وشادوا العمارة والبناء، وكثرت لديهم الجواري والعبيد، وابتعدوا عن الله. لقد كرهوا الحياة الدنيا لأنّها تقرّب الناس من المعصية، وكلّما ازدادت المعاصي تعرّض المجتمع للانحلال. يقول الغزالي أن "زماننا هذا زمان ذوي الوقاحة والسّفهاء"[6]، وهذا الزمان الذي عاش به الغزالي هو " الزمان الذي هلك فيه الخلائق جميعهم، وقد خبثت أعمال الناس ونيّاتهم "[7].

وهذا الزمان الذي كرهه الغزالي نعتبره نحن اليوم من أيّام تفوق الحضارة العربية الإسلامية، ولكن رؤية أهل زمانه له، تعكس مرآة صادقة عن الوضع الاجتماعي والسياسي، وهذا ما سيعكسه لنا الغزالي بقوله "واستولت على القلوب مداهنة الخلق، وانمحت عنها مراقبة الخالق"[8]، وأصبح النّاس في أيامه لا يخشون شيئاً ولا يحسبون حساباً حتى لله تعالى، وسبب ذلك انتشار الرياء والنفاق بينهم، وبسبب هذا الفساد الذي عم الناس وأصبح هو المطلب الأساسي ليحققوا من خلاله مطالب الدنيا ازداد ابتعاد الناس عن دينهم لصالح دنياهم وعن خالقهم لصالح مصالحهم الشّخصية، وها ما دفع الغزالي ليصور المجتمع الإسلامي بزمانه بقوله "وقد أندرس فيه الحق وانكسر البثق ... فإن قوماً اتخذوا هذا القرآن مهجوراً، وجعلوا التعليمات النبوية هباء منثوراً، وكل ذلك من قصور الجاهلين ودعواهم في الدين"[9].

ويتحول كره الغزالي للمجتمع السائد في عصره إلى إدانة لكل أنماط الحياة والسلوك التي يمارسها الناس مهما علت

مراتبهم الاجتماعية، ويتحول كرهه إلى أوجه النظام المختلفة من سياسي واجتماعي واقتصادي بقوله "وأما الآن في هذا الزمان، فكل ما يجري على أيدي أمرائنا وألسنة ولاتنا فهو جزاؤنا واستحقاقنا، كما أننا رديئوا الأعمال قبيحو الأفعال، ذوو خيانة وقلّة أمانة، فأمراؤنا جائرون وغشمة معتدون"[10].

إن كلام الغزالي السابق يعكس المرارة التي تولّدت عنده نتيجة مطالعته لأحوال الناس في زمانه، وفي هذا الأقوال والتي لا يخلو منها زمان تبيّن كره مفكّر للأوضاع السّائدة في زمانه، فثمرة اختلاط الثقافات والأحوال السياسية جعلت عصره تغمره نزعات الإلحاد في فلتات الزندقة، وحيرة الشك وسفسطة المنطق ومنطق الفلاسفة في أصول الدين، وأخرى حفلت بها الحياة الاجتماعية في محافل الخلافة وأندية الناس[11]. وليس أمامه إلاّ قبول هذا الوضع أو رفضه ، وقبول هذا الوضع يعني من الإنسان قبول ما يكره ، ولكن رفضه له يعني أن هذه الكراهيّة يجب أن تتحوّل للجانب الآخر من التناقض وهو الحب ، لذلك كانت دعوة الغزالي لنفسه " الرّحيل ، الرّحيل"[12].

وهذا ما عمل به الصوفية وهو الفرار من الدنيا واللجوء إلى الله. فقد تفوق عندهم الحب على الكراهية، لأن الذي يحب لا يمكن أن يكره، لأن الحب عاطفة تطغى على الإنسان فلا يعود يرى إلا كل شيء جميل وتتراجع الكراهية عنده حتى تتلاشى، فكيف إذا كان المحبوب هو الله، وهل من يحب الله يمكن أن يكره أحداً؟ والله هو الحب ذاته، ويقول ابن قيم الجوزية " فالنفس لا تترك محبوباً إلا لمحبوب، ولا تتحمل مكروهاً إلا لتحصيل المحبوب، أو للتخلّص من مكروه آخر"[13]، فالمحب برأيه يتخلّى عن أدنى أنواع الحب طلباً لأعلى أنواع الحب لأن أعلى أنواع الحب أن تحقق للإنسان نفعاً أكثر من الحب الأدنى "فتبين بذلك أن المحبة والإرادة أصل للبغض والكراهة وعلّة لهما من غير عكس، فكل بغض فهو لمنافاة البغيض للمحبوب، ولولا وجود المحبوب لم يكن بغض"[14]. فكان بالنسبة لهم الله هو الأعلى دائما، وغيره هو الأدنى، فكان لابد من التضحية بالأدنى وهي الدنيا طلباً للأعلى وهو التفرغ لحب الله تعالى.

تلك هي المواقف التي اتخذها الصوفية في حياتهم، فقد غلب عليهم حب الله، لدرجة أنه لم يعد في قلوبهم مكان للكراهية. أما بقية الناس فهم "**في طغيانهم يعمهون**" [يونس:11].

<u>أولا: الحب الإلهي:</u>

كانت بداية الحب إلا لهي، من الله تعالى للإنسان، ولكن هل يمكن أن تكون هذه العلاقة متبادلة، أي أن يحب الإنسان الله كما يحب الله الإنسان؟ لاستطيع القول أن طبيعة هذا الحب يحمل في جانبيه تكافؤاً من نوع ما، فإن حب الله للإنسان ليس كحب الإنسان لله، فهناك دائماً الجانب الأقوى في هذا الحب وهو الله تعالى، وهناك الجانب الأضعف وهو الإنسان، ولا يمكن تحت أي ظرف عقد مقارنة بين هذين الحبين، فالله هو الخالق وهو المنعم بيده القوة والملك، وقد ورد في القرآن الكريم "**ليس كمثله شيء**" [الشورى:11] فقد نزه الله نفسه في هذه الآية الكريمة أن يوصف بما يصف الناس به بعضهم بعضا، وما يحيط بهم في هذا الكون.

وما يمكن أن ينطبق على أنماط السلوك البشري ضمن الحدود البشرية لا يمكن أن ينطبق على الله تعالى، لأنه أكبر من أن يوصف بصفات وضعها الناس للتفاهم في ما بينهم، وبالتالي فإن الحب من جانب الله للبشر ليس هو نفسه حب الإنسان لله، وإن اتفقا بالمعنى إلا أن الطريقة تختلف، وهذا ما يشير إليه القشيري بقوله (وليست محبة العبد له سبحانه متضمنة ميلا، كيف وحقيقة الصمدية مقدسة عن اللحاق والدرك والإحاطة"[15]، فالإنسان ليس بيده سوى الطّاعة التي يجب عليه أن يقدمها لله تعالى. فإذا كان الأقوى هو الذي يبادر بعرض حبه على الأضعف، فإن دور الأضعف وهو الإنسان أن يبادر بالاستجابة لهذه الدعوة الكريمة وهي أن يحب الله شكراً له على نعمه" وهذا الّذي يمثل جانب الطّاعة والخضوع لله، فليس من العبادة في شيء أن يرفض الإنسان الاستسلام لله،

ويستكبر عن إتباع منهجه والانقياد لشرعه"[16]، وكما قال الله تعالى بأنه يحب المؤمنين من عباده فهو يطلب منهم أن يحبوه، يقول تعالى:"**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**" [آل عمران:31]، وقوله تعالى: "ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله" [آل عمران:36]. نلاحظ في الآيتين السابقتين أنهما تطالبان المؤمنين بحب الله ولكن أي نوع من الحب؟ إنه الحب القائم على الإيمان بالله وطاعته، وتتحقق طاعته بإتباع أوامره وتجنب نواهيه، لأن الله لا يأمر إلا بالخير، وما يحقق الخير للإنسان.

وقد أفرد الصوفيون مساحات واسعة من كتاباتهم لموضوع الحب الإلهي باعتباره من أجل أنواع السلوك التي يتوجب على المؤمن إتباعها إذا أراد أن يحوز على حب الله، وبدأت تظهر في عباداتهم وصلواتهم أشكال مختلفة من السلوك الإيماني الذي كان يميزهم عن غيرهم من المسلمين .

قال أبو طالب المكي: "أن المحبة أكمل مقامات العارفين ... وهي إيثار من الله تعالى لعباده المخلصين، والمحبة تكون هبة من الله تعالى لأصفيائه من الأولياء، وهي أكمل أنواع المقامات التي يحققها المؤمن" و"كل مؤمن بالله فهو محب لله، ولكن محبته على قدر إيمانه، وكشف مشاهدته، وتجلي المحبوب له على وصف أوصافه"[17]. ويقول القشيرى أن الحب هو تفضيل الله لجماعة معينة من الناس هم عباد الله المخلصين بقوله: "الحب حالة شريفة، شهد الحق سبحانه بها للعبد، وأخبر عن محبته للعبد"[18]، ويرى القشيري أن الله تعالى إذا أراد أن ينعم على عبده بصورة عامة فإن هذه النعم تدخل في باب الرحمة الإلهية أما إذا تعلقت بخصوصها فإنها تسمى رحمة"[19].

يعلم الإنسان أنّ الله يراه وهو يعمل، ويسجل عليه أعماله، فمن عمل صالحاً بتقربه لله حظي بحبه، ويجب على الإنسان أن يرد هذا الحب بالإخلاص لله تعالى عن طريق الحب أيضاً. لأن الحب هو شكل من أشكال التعبير عن الشكر، والله هو أحق ما يجب على الإنسان أن يشكره على نعمه الكثيرة التي منحها للإنسان، وأهمها نعمة الإيمان، ويدخل الإنسان في "حال المحبة" التي يصفها الطوسي بأنها هي حال "لعبد نظر بعينه إلى ما أنعم الله به عليه، ونظر بقلبه إلى قرب الله تعالى منه وعنايته به، وحفظه وكلاءته له، فنظر بإيمانه وحقيقة يقينه إلى ما سبق له من الله تعالى من العناية والهداية وقديم حب الله له، فأحب الله عز وجل"[20].

يقول الطوسي أن أهل المحبة في ثلاثة أحوال: الحال الأول هو محبة العامة، وهذا ناتج من إحسان الله إليهم وعطفه عليهم. والحال الثاني وهو يتولد من نظر القلب إلى غناء الله وجلاله وعظمته وعلمه وقدرته، وهذا النوع من الحب يصل إليه الصادقون والمتحققون. أما النوع الثالث من الحب فهو محبة الصديقين والعارفين، تولدت من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله تعالى بلا علة، فكذلك أحبوه بلا علة[21]. إن الحال الثالث من تصنيف المحبين عند القشيري ينطبق تماما على الصوفية، لأن الصوفي إذا أحب الله، فإنه لا يحبه لغرض بنفسه، فهو قد هجر الدنيا بما فيها، وتحول إلى حال الزهد، ولم يبق له في هذه الدنيا ما يحبها، فكان حب الله هو البديل الأسمى له، ومن كان سعيه لله فقد أمن على نفسه في الدنيا والآخرة.

ثانيا: العشق الإلهي عند الصوفية:

اتهم بعض الصوفية باستخدام ألفاظ لا تليق في حق الله تعالى يعبرون بها عن حبهم له عز وجل، ومن هذه الألفاظ لفظ "العشق"، فهل استخدام بعض الصوفية للفظ "العشق" في حق الله تعالى للدلالة على حبهم له جائز شرعا؟

والحقيقة أن استعمالهم ذلك لا يخرج عن المعنى اللغوي العام وهو شدة المحبة لله تعالى، ولا يقصدون من ذلك ما يوهم أي معنى مستحيل في حقه تعالى من لوازم الحوادث أو العوارض البشرية، وينزهون الله تعالى عن كل ذلك، ولبيان الموضوع بالتفصيل، لابد من إيضاح معنى العشق لغة، ومعناه في استعمال الصوفية.

1- فالعشق لغة: كما قال أئمة اللغة: أشد الحب[22]، يقال (عَشِقَ): إذا أَحَبَّ حُبًّا شَديدا.

والعشق نوع من أنواع المحبة، والمحبة عاطفة واحدة أو حقيقة واحدة العين، تتطور وتتصعد، وفي كل مرحلة من مراحل تصعدها تتخذ اسما: الحب، الهوى، العشق، الود، الغرام، الهيام[23].

2- والحب: هو ميل الطبع أو انفعال نفساني ينشأ عند: الشعور بحسن شيء من صفات ذاتية أو إحسان، أو اعتقاد في نفع مَن يجر إليه الخير، فإن تأكد ذلك الميل، وقوي هذا الانفعال سمي "عِشْقًا"[24].

3- أما العشق في استعمال الصوفية:

فلكثير من الصوفية كلام مروى في هذا الباب[25]، ولعل من أجمع ذلك قول الإمام الغزالي عند حديثه عن السماع وأنواعه: "السماع السابع سماع من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه فلا ينظر إلى شيء إلا رآه فيه سبحانه، ولا يقرع سمعه قارع إلا سَمِعَه منه أو فيه، فالسماع في حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه وحبه ..، ومستخرج منه أحوالا من المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها، يعرفها مَن ذاقها وينكرها من كل حسه عن ذوقها، وتسمى تلك الأحوال بلسان الصوفية وجدا... ثم يتبع الصفاء الحاصل به مشاهدات ومكاشفات، وهي غاية مطالب المحبين لله تعالى، ونهاية ثمرة القربات كلها فالمفضي إليها من جملة القربات لا من جملة المعاصي والمباحات... ولعلك تقول: كيف يتصور العشق في حق الله تعالى حتى يكون السماع محركا له؟

فاعلم أن مَن عَرَف الله أحبَّه لا محالة، ومَن تأكدت معرفته تأكدت محبته بقدر تأكد معرفته والمحبة إذا تأكدت سُميت عشقا، فلا معنى للعشق إلا محبة مؤكدة مفرطة، ولذلك قالت العرب: "إن محمدا قد عَشِق ربه" لمَّا رأوه يتخلى للعبادة في جبل حراء.

واعلم أن كل جمال محبوب عند مدرك ذلك الجمال، والله تعالى جميل يحب الجمال... ومن العجب أن يعقل عشق شخص لم تشاهد قط صورته أجميل هو أم قبيح، وهو الآن ميت، ولكن لجمال صورته الباطنة وسيرته المرضية والخيرات الحاصلة من عمله لأهل الدين وغير ذلك من الخصال، ثم لا يعقل عشق من ترى الخيرات منه بل على التحقيق مَن لا خير ولا جمال ولا محبوب في العالم إلا وهو حسنة من حسناته، وأثر من آثار كرمه وغرفة من بحر جوده، بل كل حسن وجمال في العالم أدرك بالعقول والأبصار والأسماع وسائر الحواس من مبتدأ العالم إلى منقرضة ومن ذروة الثريا إلى منتهى الثرى فهو ذرة من خزائن قدرته، ولمعة من أنوار حضرته فليت شعري كيف لا يعقل حب مَن هذا وصفه وكيف لا يتأكد عند العارفين بأوصافه حبه حتى يجاوز حدا يكون إطلاق اسم العشق عليه ظلما في حقه لقصوره عن الإنباء عن فرط محبته"[26].

ويُنبِّه الإمام الغزالي على أمر مهم بخصوص إنشاد الأشعار الوعظية التي تكنى عن العشق الإلهي بالعشق المعروف بين الناس فيقول رحمه الله تعالى: "وأما الأشعار فتكثيرها في المواعظ مذموم قال الله تعالى: "**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ**" [الشعراء:224- 225]، وقال تعالى: "**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ**" [يس:69]، وأكثر ما اعتاده الوعاظ من الأشعار ما يتعلق بالتواصف في العشق وجمال المعشوق وروح الوصال وألم الفراق، والمجلس لا يحوى إلا أجلاف العوام وبواطنهم مشحونة بالشهوات وقلوبهم غير منفكة عن الالتفات إلى الصور المليحة فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ما هو مستكن فيها فتشتعل فيها نيران الشهوات فيزعقون ويتواجدون، وأكثر ذلك أو كله يرجع إلى نوع فساد فلا ينبغي أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس"[27].

4- ملاحظات حول لفظة العشق عند الصوفية:

1. استعمالهم لها يدور حول نفس المعنى اللغوي (شدة المحبة)، ويقال: إن أوَّل مَن استخدمه

في الدلالة على شدة الحب لله عز وجل هي السيدة رابعة العدوية، واستخدمه الصوفيةُ بعدها مثل: معروف الكرخي، ويحيى بن معاذ، وغيرهما[28]. ولم يرد في معاجم الصوفية (العشق) كمصطلح فني من مصطلحات التصوف لهم فيه معنى خاص بهم[29]، ليبقى استعمالهم لهذا اللفظ أسير المعنى اللغوي فحسب، يجوز عليه ما يجوز على غيره من استعمالات اللغة، ويمنع منه ما يمنع منها.

2. أن عامة استعمالات الصوفية لهذه اللفظة (العشق) إنما هو في جانب العبد فحسب، وليس في جانب المولى عز وجل، يقول أبى علي الدقاق: "العشق : تجاوز الحد في المحبة ولهذا لا يوصف الحق بالعشق؛ لأنه لا يوصف بأنه تجاوز الحد في محبة العبد، وإنما يوصف بالمحبة"[30].

3. والعشق لغة لا يقتضى لوازم حسية ولا جسمية، وتَوهُّم هذا أو إرادته إنما هو في عرف عامة الناس، وليس في أصل المعنى اللغوي للعشق والذي لا يعني سوى شدة المحبة، ومن هنا فيجوز استعمال هذه الكلمة في التعبير عن شدة محبة الصوفي لربه.

4. وكون القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريف لم يستعملاها لا يمنع منه طالما استعمل في معنى مشروع أتت به الشريعة وهو شدة المحبة، ولم يستلزم محالا في حقه تعالى.

5. وقد كُني عن العشق في القرآن بشدة الحب كما في قوله تعالى: "**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ**" [البقرة: 165]. فهو المحبة التامة القوية الخاصة التي تشغل قلب المحب وفكره وذِكره لمحبوبه.

وعلى هذا المعنى فالعشق هو أحد أنواع الحب الذي لا ينكر ولا يذم، فكل عشق يُسمى حبا وليس كل حب يسمى عشقا، وقد قيل: نهاياتُ المحبةِ بداياتُ العشق.

وقد استخدم الصوفية ألفاظًا كثيرة يعبرون بها عن حبهم لله عز وجل. يقول ابن الدباغ الأنصاري: "اعلم أنه قد اختلف الأولون والآخرون في حد هذا المقام (يعنى مقام المحبة) وتباينوا في العبارة عن حقيقته؛ إذ كلٌّ منهم إنما يُعبِّر على حَسَب ذوقه منه، وينطق بمقدار حاله، وكلٌّ قاصر عن الإحاطة بحقيقته، ومَن وَصَلَ إلى شيء منه من أهل التحقيق لم يُخَاطِبِ الجمهورَ به إلا رمزًا وتلويحًا، فإنه أعظم من أن تُشْرَح حقيقتُه بالنطق، وحَسْبُ المعبِّر عنه الإيماء، فأما شرح الحقيقة باللفظ الصريح فمتعذرٌ جدًّا"[31].

ومِن ثَمَّ فإن ما وجد في كتب الصوفية من شرح وتوضيح لأي من مصطلحات المقامات والأحوال إنما هو من نتاج تجربة فردية ذاتية يمر بها المتصوِّف لا يشاركه في مقدماتها أو أحداثها أو نتائجها أحدٌ، ومِن ثَم اختلفت عباراتهم في التعبير، وقد يعجز أحدهم عن إطلاق ألفاظ تُعبِّر عن حقيقة مكنونه الداخلي، فهي أمور غير قابلة للبرهان والإثبات، يقول ابن الدباغ: "فإن المحبة لا يُعبِّر عنها حقيقةً إلا مَن ذاقها، ومَن ذاقها استولَى عليه من الذهول عن ما هو فيه أمرٌ لا يمكنه معه العبارة"[32].

ومحبة الله على مراتب بعضها أعلى من بعض، فأشد العباد حبا لله أحسنهم تخلقا بأخلاقه مثل: العلم، والحلم، والعفو، والستر على الخلق، وأعرفهم بمعاني صفاته أبعدهم نزاعا له في معاني الصفات التي لا ينبغي أن يشاركه فيها أحد؛ مثل: الكبر، والعز، وطلب الذكر.

وكذلك أشدهم حبًّا لرسول الله وإتباعا لآثاره وأشبههم هديا بشمائله، وحَسْبُك أن الله قد جَعَلَ طاعته عينَ طاعتِه ومحبته شرطَ محبتِه، وما ذاك إلا لأن الله سبحانه جَعَلَ النور والهداية الَّذَين أفاضهما على عالمنا بواسطته، ولذلك سمَّاه نورًا مبينًا وسراجًا منيرًا، وجعله رحمةً للعالمين.

وقد اختُص سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكمال مقام المحبة، فإنه أُعْطِي من هذا المقام ما لم يُعط غيرُه من الأنبياء عليهم السلام، ولتحقُّقِه به قال تعالى فيه: "**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**" [النساء: 80]، وقال تعالى: "**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ**" [الفتح: 10]، وقال تعالى: "**قُلْ إِنْ كُنْتُم تُحِبُونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ**" [آل عمران:31][33].

والمحبة قد تتعلق بالأعراض بلا شبهة كما يقال: عشقت اللون الفلاني، أو أعشق طعم كذا، ولا علاقة بين العرض والجوهر (**الجوهر**: ما لا يحتاج في وجوده إلى شيء آخر يقوم فيه، فله وجود مستقل قائم بنفسه، كالأجسام والأرواح. أما **العرض**: فهو ما يقوم بغيره، فهو لا يوجد إلا صفةً من صفات الجوهر، وتابعًا وجوده للجوهر، ومن العرض ما هو مختصٌّ بالحي: كالحياة والعلم والقدرة والإرادة، ومنه ما ليس مختصًّا بالحي: كالأصوات والألوان والروائح والحركة والسكون وغير ذلك)[34]، ومن ذلك قول أبى العتاهية:

أَأُخَيَّ مَن عَشِقَ الرِّئاسةَ خِفتُ أنْ

يَطْغَى ويُحدِثُ بِدعَةً وضَلالا[35]

ولو سلمنا صحة قول المعترض- فلا مانع مِن أن يُستَخْدم اللفظ في المعنى الموضوع له، ثم يُصرف اللفظ عن هذا المعنى في موضع آخر؛ لاستحالته عقلا في حق مَن استُخدم له، ويُحمل على المعنى اللائق الذي يقتضي تنزيه الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، وهذا من الاستخدام الشائع في لغة العرب وفى النصوص الشرعية الشريفة، وذلك أيضا مع حسن الظن بالمسلمين الذين استخدموا هذه الألفاظ بإرادتهم للمعنى الموجِب للتنزيه وعدم التشبيه، بل إن الصوفية في أكثرهم منكرون لما يخالف هذا الفهم.

المحور الثالث: شعراء الصوفية في أجمل قصائدهم

لقد كان ظهور الشعر الصوفي في أدبنا العربي معاصراً لظهور التصوف ذاته. فقد عبر أوائل التصوف عن أنفسهم، وطرقهم، وحبهم الإلهي شعراً، كما لو كانوا قد اختاروا هذا الفن الأدبي الرفيع حتى يكون وسيلتهم في نشر التصوف وأصوله . ومنذ فجر التصوف وحتى اليوم، يتخذ الصوفية من الشعر قالباً للتعبير عن المحبة التي تعني عندهم طريق الوصول إلى الله تعالى.

أولا: أبي حمزة الخراساني:

من كبار أعلام القرن الثالث الهجري، أقام بنيسابور وصاحب الجنيد والخراز، ذاعت له شهرة واسعة بفضل علمه وتقواه وورعه، توفي سنة 290هـ، وله قصائد تفيض بصدق العاطفة الدينية وسمو الحب الإلهي:

أهابك إن ابدي إليك الذي اخفي

وسري بيدي ما يقول له طرفي

نهاني حيائي منك أن اكتم الهوى

وأغنيتني بالفهم منك عن الكشف

تلطفت في أمري فأبديت شاهدي

إلى غائبي واللطف يدرك باللطف

أراك وبي من هيبتي لك وحشة

فتؤنسني باللطف منك وبالعطف

وتحيي محبا أنت في الحب حتفه

ومن عجب كون الحياة مع الحتف

ثانيا: عبد الله بن القاسم الشهرزوري:

نسبه إلى مدينة شهرزور في كردستان، شاعر عالم وأديب وفقيه ومحدث بارع وحكيم، توفي سنة 511هـ، وهو قليل الذكر بين الأدباء وان كان عظيم القدر بين عشاق المتصوفة في زمانه:

قلت أهل الهوى سلام عليكم

لي فؤاد عنكم بكم مشغول

لم يزل حافز من الشوق يحدو

بي إليكم والحادثات تحول

جئت كي اصطلي، فهل إلى نار

كمو هذه ،الغداة سبيل

ثالثا: ابن الفارض:

هو إمام المحبين وسلطان العاشقين، ولد في القاهرة سنة 576هـ، ونشا نشأة دينية في كنف والده، وقد اشتهر شعره لامتلائه بالمعان الصوفية الرمزية، ولقوة ما تميز به من أداء وتعبير، وعاطفة حارة متوهجة، وخيال محلق.

وبما شئت في هواك اختبرني فاختباري ما كان فيك رضاك

فعلى كل حال أنت مني بي أولى، إذ لم أكن لولاك

وكفاني عزا بحبك ذلي وخضوعي، ولست من أكفاك

وإذا ما إليك بالوصل عزت نسبتي عزة وصح ولاك

فاتهامي بالحب حسبي، واني بين قومي اعد من قتلاك

رابعا: محي الدين ابن عربي:

ولد بمرسيه بالأندلس سنة 560هـ، سافر إلى مصر وبغداد ودمشق، جاور في مكة، وأقام ببلاد الروم طلبا للعلم والسياسة، وتوفي بالشام، له الفتوحات المكية، كما له ديوان "ترجمان العشاق" الذي يمتلئ بالقصائد في الغزل يرمز بها إلى المعاني الروحية والدلالات الصوفية:

يا خليلي قفا واستنطقا رسم دار بعدهم قد خربا

واندبا قلب فتى فارقه يوم بانوا، وابكيا وانتحبا

رحلوا العيس ولم اظفر بهم السهو كان أم طرف نبا

لم يكن هذا ولا ذاك، وما كان إلا وله قد غلبا

خامسا: رابعة العدوية:.

أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية. إحدى النساء العابدات الشهيرات ومن دعائم المذهب الصوفي المبكر في الحياة والأدب. ولدت بالبصرة ولم يذكر المؤرخون سنة ولادتها. وهي رائدة الشعر الصوفي في القرن الثاني الهجري. اشتهرت بالصلاح والعبادة، وبلغت في النسك والفضل والزهد منزلة شريفة توفيت سنة 135هـ. ومن الشعر المشهور الذي ينسب إليها:

احبك حبين حب الهوى وحبا لان كاهل لذاك

فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواك

وأما الذي هو أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراك

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاك

سادسا: ابن عطاء الله السكندري:

من أهل العلم في التفسير والحديث والنحو والفقه والأصول، صحب أبا العباس المرسي واخذ عنه، استوطن القاهرة وكان له كرسي في الأزهر يجلس عليه. توفي سنة 709هـ. من أشهر أثاره مجموعة الحكم:

وكلي محتاج، وان تلك الغنى

ومثلي من يخطي، ومثلك من يعفو

وأنت الذي ابدي الوداد تكرما

ومثلك من يرعى، ومثلي من يجفو

وما طاب عيش لم تكن فيه

واصلا ولم يصفو، لا والله، أنى له يصفو

عزمت على أن اترك الكون كله

واقفوا سبيل الحب، والمجتبى يقفو

خاتمة:

في كتاب لبرتراند راسل "اثر العلم في المجتمع"، وبعد أن عدد الآثار الايجابية والسلبية للعلم، رأى أن تحقيق السعادة الإنسانية يكمن في شيء بسيط جدا، حيث يقول: "إن الشيء الذي اقصده هو الحب، أي الحب المبني على التقوى والحنان. إذا كنت تشعر بهذا، فمعناه أن لديك دافعا للبقاء ودليلا

للعمل وسببا للإقدام وحاجة حتمية للأمانة الفكرية. إذا كنت تشعر بهذا، فانك تمتلك كل ما يحتاجه أي شخص من باب التدين. انك وان لم تجد السعادة، فلن تعرف اليأس القاتم الذي يصيب من كانت حياتهم من دون هدف وخالية من غير قصد، وذلك لأنك تستطيع في أي وقت عمل شيء ما للتخفيف من الكم المروع للعناء البشري"[36].

من الواجب على المسلم أن ينشغل بما يزيد روابط علاقته بربه سبحانه وتعالى، والتي تتطلب أن يُفَرِّغ قلبه مِن أي فكر أو ذكر سوى الله عز وجل، فالمحبة الحقيقية هي محبة محضة خالصة لا شراكة فيها.يقول ابن الدباغ: "اعلم أن أجلَّ ما في الوجود السعادةُ الأبدية... ولا يُتوصَّل إلى هذه السعادة إلا بمحبة الحقِّ تعالى بكل القلب مِن غير شِرْك في محبته"[37].

قائمة المراجع:

[1] فاروق شوشة، **احلى عشرين قصيدة في الحب الاسلامي**، دار الشروق، بيروت، 1991، ص11.

[2] الموسوعة العربية العالمية، مادة الصوفية.

[3] فاروق شوشة، المرجع السابق، ص14.

[4] عبد الرحمن بدوي، **شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية**، مكتبة النهضة المصرية، سلسلة دراسات إسلامية، بدون تاريخ، ص61.

[5] الموسوعة العربية العالمية، مادة صوفية.

[6] ابو حامد الغزالي، **التبر المسبوك**، دار ابن زيدون، ط1، بيروت، 1987، ص57.

[7] نفس المرجع، ص76.

[8] ابو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج2 ، مكتبة الصفا، ط1، المغرب، 2003، ص414 وما بعدها.

[9] ابو حامد الغزالي، **القسطاس المستقيم**، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1986، ص64.

[10] ابو حامد الغزالي، **التبر المسبوك**، المرجع السابق، ص57.

[11] محمد صادق عرجون، **ابو حامد الغزالي المفكر الثائر**، الدار القومية، مصر، 2001، ص07.

[12] ابو حامد الغزالي، **المنقذ من الضلال**، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1988، ص59 وما بعدها.

[13] ابن قيّم الجوزيّة، **محبّة الله**، تحقيق يوسف علي بديوي، دار اليمامة، دمشق، ط3، 2005، ، ص 69.

[14] ابن القيم، المرجع السابق ، ص 69 .

[15] عبد الكريم القشيري ، **الرسالة القشيريّة في علم التصوّف** ، تحقيق معروف زريق، دمشق وبيروت ، ط1 ، 1988، ص319

[16] ابن قيّم الجوزيّة ، المرجع السابق، ص33.

[17] أبو طالب المكّي، **قوت القلوب** ، ج1 ، مكتبة مصفى البابي الحلبي ، القاهرة ، 1961 ، ص 50 .

[18] عبد الكريم القشيري ، مرجع سابق ، ص 318 .

[19] عبد الكريم القشيري ، مرجع سابق ، ص 319 .

[20] الطّوسي، **اللّمع في تاريخ التصوّف الإسلامي**، ضبط: كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2001، ص54.

[21] نفسه، ص 54 .

[22] محمد عبد الرزاق، **تاج العروس** مادة (ع ش ق). التراث العربي، الكويت، تحقيق مجموعة من المحققين. ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط1.

[23] سعاد الحكيم، **المعجم الصوفي**، دار دندرة، ط1، بيروت 1981، ص303.

[24] الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر، تونس، ص225.

[25] عبد الكريم الكسنزان، **موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان**، دار المحبة، دمشق، 2005.

[26] ابو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، المرجع السابق، ج2، ص1139.

[27] نفسه، ج1، ص60.

[28] سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، المرجع السابق، ص306.

[29] عبد الرزاق القاشاني، **رشح الزلال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأذواق والأحوال**، تحقيق: سعيد عبد الفتاح، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، 1995.

[30] عبد الكريم الكسنزان، المرجع السابق، مادة (العشق).

[31] عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، **مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب**، تحقيق: هـ ريتر، دار صادر، بيروت، ص20.

[32] وينبع نقد البعض للمتصوفة ومصطلحاتهم دائما من التفسير الحرفي لنصوصهم وعدم النظر إلى الكنايات والمعاني المجازية، والتي قد يريدونها في أغلب حالهم، وذلك كأن نصوصهم واضحة الدلالة وغير حمَّالة لأوجه متعددة.

[33] عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، المرجع السابق، ص19.

[34] حبنكة الميداني، **ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة**، دار القلم، دمشق، ص328.

[35] يوسف بن عبد البر، **جامع بيان العلم وفضله**، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري،دار ابن الجوزي، ج1، ص571.

[36] برتراند راسل، **اثر العلم في المجتمع**، تر: صباح الصديق الدملوجي، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2008، ص129.

[37] عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، المرجع السابق، ص11.